

تقدم الاصلاح في المانيا

اثار اختفاء لوثر الغامض الرعب والفرع في كل ارجاء المانيا. ففي كل مكان كان الناس يستخبرون عنه وانتشرت اشاعات طائشة مهتاجة عنه، واعتقد كثيرون انه قد قتل. وكانت هنالك مناحة عظيمة ليس فقط من جانب أصدقائه المخلصين المجاهرين بولائهم له بل أيضا من جانب آلاف ممن لم يجاهروا باعتناق مبادئ الاصلاح. وقد أقسم كثيرون قسما علنيا لينتقمَ لموته.

رأى الرؤساء البابويون برعب عظيم الى أي مدى ثارت مشاعر الشعب ضدهم. فمع انهم ابتهجوا وتهللوا اذ سمعوا بخبر موت لوثر المزعوم فسرعان ما صاروا الآن يرغبون في الاختفاء بعيدا من غضب الشعب. ان اعداءه لم يكونوا يضطربون أمام أعظم الاعمال الجريئة التي قام بها وهو عائش بينهم بقدر اضطرابهم عند اختفائه. وأولئك الذين في غضبهم حاولوا اهلاك هذا المصلح الجريء امتلأت قلوبهم الآن خوفا وهلعا عندما صار أسيرا عاجزا. وقد قال أحدهم: « ان الوسيلة الوحيدة الباقية لنا لانقاذ انفسنا هي ايقاد المشاعل والبحث عن لوثر في العالم كله لكي نعيده الى الامة التي تلح في السؤال عنه » (١٣٩). وقد بدا كأن مرسوم الامبراطور كان عديم القوة، واستشاط مبعوثو البابا غضبا عندما رأوا أن ذلك المرسوم لم يسترع انتباه الناس ولا اهتمامهم بقدر ما استرعاه مصير لوثر.

لكنّ خبر كونه سالما، وان يكن سجيناً، هدّأ مخاوف الشعب وزاد تحمسهم له. وبدأ الناس يقرأون مؤلفاته بحماسة أعظم مما قد فعلوا من قبل. وانضمت جماهير متزايدة الى دعوة هذا البطل الذي دافع عن كلمة الله في مثل تلك الظروف المخيفة. وبمرور الايام كان الاصلاح يعتز ويتقوى. والبدار الذي ألقاه لوثر نبت وظهر وترعرع في كل مكان. واحتجابه وغيابه انجز عملا ما كان يُستطاع انجازه لو كان حاضرا. وقد أحس القادة الآخرون بان عليهم مسؤولية جديدة الآن بعد احتجاب قائدهم العظيم. فبايمان وغيره عظيمين اندفعوا الى الامام ليعملوا كل ما في طوقهم حتى لا يتعطل العمل الذي بُدئ به بمثل هذه الروعة.

لكنّ الشيطان لم يكن خاملا. فلقد حاول الآن أن يعمل ما قد حاول عمله في كل حركات الاصلاح الاخرى، أي أن يخدع الناس ويهلكهم بالتمويه عليهم باصلاح زائف بدل الاصلاح الحقيقي. فكما كان يوجد مسحاء كذبة في القرن المسيحي الاول في الكنيسة المسيحية كذلك قام انبياء كذبة في القرن السادس عشر.

فلقد قامت شرذمة من الناس متأثرة بالاهتياج الحادث في المحيط الديني وتصوّروا انهم تلقوا وحيا خاصا من السماء وادعوا ان الله ارسلهم للتقدم في تكملة عمل الاصلاح الذي اعلنوا أن لوثر بدأه بضعف ووهن. لكنهم في واقع الامر كانوا يقوِّضون العمل نفسه الذي قام به. فلقد رفضوا المبدأ العظيم الذي هو أساس الاصلاح، أي ان كلمة الله هي الاساس الكافي للايمان والاعمال، واستعاضوا عن ذلك المرشد الذي لا يخطئ بالمقياس المتغير غير اليقيني، مقياس مشاعرهم وانفعالاتهم. وبهذا التصرف الذي بموجبه طرحوا كاشف الضلالات والاكاذيب جانبا أفسح المجال للشيطان ليسيطر على عقول الناس كما يشاء.

وقد ادعى أحد اولئك الانبياء انه تلقى تعليمه من الملاك جبرائيل. وان طالبا ممن انضموا اليه ترك دراسته معلنا ان الله قد وهبه حكمة لتفسير الكلمة الالهية. وانضم اليهما أولئك الذين كانوا يميلون الى التعصب. لكنّ اجراءات

هؤلاء المتعصبين لم يكن لها تأثير كبير. كانت كرازة لوثر قد أيقظت الناس في كل مكان ليحسوا بضرورة الاصلاح. أما الآن فان بعضا ممن كانوا أمناء أضلتهم ادعاءات هؤلاء الانبياء الجدد.

تقدم متزعمو هذه الحركة الى وتبرج وألحوا على ميلانكتون وشركائه بقبول دعوتهم قائلين : « لقد أرسلنا الله لتعليم الشعب وكانت لنا أحاديث مع الرب. ونحن نعلم ماذا سيحدث. وبالاختصار نحن رسل وأنبياء ونستشهد بالدكتور لوثر » (١٤٠) .

المتعصبون يعترضون سبيل الحق

اندهش المصلحون وتحيروا. فقد كان هذا عنصرا لم يسبق لهم أن واجهوه، ولم يكونوا يعلمون كيف يتصرفون. قال ميلانكتون : « انه بكل تأكيد توجد أرواح غير طبيعية في أولئك القوم، ولكن أي أرواح هي؟... فمن ناحية علينا أن نحترس لئلا نطفئ روح الله، ومن الناحية الاخرى لنحترس من أن يضلنا روح الشيطان » (١٤١).

وسرعان ما ظهرت ثمار التعليم الجديد. فهذا التعليم جعل الناس يهملون الكتاب المقدس وينبذونه تماما، وساد التشويش في المدارس. فاذ رفض التلاميذ كل رادع تركوا دراساتهم وخرجوا من الجامعة. والرجال الذين حسبوا أنفسهم أكفاء لانعاش عمل الاصلاح والسيطرة عليه لم يفلحوا إلا في الاتيان به الى حافة الدمار وشفا الخراب. فاستعاد البابويون ثقتهم الآن وصاحوا قائلين: « بعد معركة واحدة سنغوز بكل شيء وننتصر » (١٤٢).

فاذ سمع لوثر وهو في وارنبرج بما قد حدث قال باهتمام عميق : « لقد كنت أتوقع دائما ان الشيطان سيقذفنا بهذا الوباء » (١٤٣). وقد عرف طبيعة أولئك الانبياء الادعاء، وعرف الخطر الذي كان يهدد قضية الحق. ان مقاومة البابا والامبراطور لم تسبب له مثل هذا الارتباك والضيق العظيم الذي يحس به الآن.

فمن بين الذين كانوا يعترفون بانهم دعاة الاصلاح وجنوده الامناء قام قوم وانقلبوا عليه وصاروا ألد أعدائه. والحقائق نفسها التي أجلبت لقلبه الفرح والعزاء العظيم استخدمت في اثاره النزاع والخصومة وأحداث التشويش في الكنيسة.

معركة الحق

في عمل الاصلاح كان روح الله يحث لوثر على التقدم الى الامام، وقد دفعه الى أبعد من نفسه. انه لم يكن يقصد أن يقف المواقف التي وقفها أو أن يحدث مثل تلك الانقلابات الجوهرية. انما هو كان مجرد آلة في يد القدرة غير المحدودة. ومع ذلك فقد كان يرتعد جزعا على نتيجة عمله. لقد قال مرة: « لو علمت ان تعاليمي قد أضرت بانسان مهما كان وضعيا خامل الذكر — وهذا ما لم تفعله لان تعاليمي هي الانجيل نفسه — لكنت أفضل أن أموت عشر مرات على أن أرفض التراجع وانكار تعاليمي » (١٤٤).

أما الآن فما هي وتبرج نفسها التي كانت مركز الاصلاح تقع تحت سيطرة التعصب والعصيان. ومع ان هذه النتيجة المخيفة لم تكن نتيجة تعاليم لوثر إلا ان اعداءه في كل المانيا الصقوا به هذه التهمة. واحيانا كان يسأل وهو مر النفس قائلا : « أيمن أن تكون هذه هي خاتمة عمل الاصلاح العظيم هذا ؟ » (١٤٥). واذ كان يجاهد مع الله في الصلاة ملاً السلام قلبه من جديد فصلى قائلا : « ان العمل ليس عملي بل هو عملك. وأنت لا تسمح لان تفسده الخرافات أو التعصب ». لكنه لم يعد يطيق البقاء حيث كان وقتا أطول بعيدا من النضال في مثل تلك الظروف المتأزمة، ولذلك عوّل على العودة الى وتبرج.

ومن دون تأخر او تردد شرع في القيام بتلك الرحلة الخطرة. كان واقعا تحت لعنة الامبراطور وكان لاعدائه ملء الحرية في أن يغتالوه، كما كان محظورا على أصدقائه أن يسدوا اليه مساعدة أو ملجأ يلوذ به. وقد اتخذت حكومة



الكتاب المقدس يطبع في المانيا للمرة الاولى

الامبراطور أقسى الاجراءات ضد تابعيه. لكنّه رأى ان عمل الانجيل معرض للخطر فخرج من مخبئه بلا خوف باسم الرب ليحارب لاجل الحق.

وفي رسالة بعث بها الى المنتخب، بعدما اخبره انه ينوي مغادرة قلعة وارترج، قال : « ليكن معلوما لدى سموكم انني ذاهب الى وتبرج تحت حراسة أسمي بكثير مما يمكن ان يقدمه الامراء والمنتخبون. وأنا لا أفكر في التماس معاضدة سموكم وبالبحري لا أرغب في حمايتكم، فانا افضل بالبحري ان احميكم بنفسي. ولو علمت ان سموكم تستطيع حمايتي أو ترغب في ذلك لما فكرت في الذهاب الى وتبرج بالمرّة. أن السيف الذي يستطيع الذود عن هذه القضية وانجاحها لا وجود له، فينبغي ان يعمل الله كل شيء من دون معونة الانسان أو موافقته. ان من لديه اعظم ايمان هو الذي يستطيع ان يقدم اعظم حماية » (١٤٦).

في رسالة اخرى كتبها لوثر وهو في طريقه الى وتبرج أضاف قائلا : «اني على استعداد لان أثير سخط سموكم وغضب العالم كله. أليس أهل وتبرج هم خرافي ؟ ألم يجعلهم الله أمانة في عنقي ؟ أفلا ينبغي لي اذا دعت الضرورة ان أعرض نفسي للموت في سبيلهم ؟ وفضلا عن هذا فانا أخشى من نشوب ثورة في المانيا يعاقب بها الله أمتنا » (١٤٧).

قوة الكلمة

استأنف لوثر عمله بحذر وتواضع عظيمين يصحبهما العزم والثبات. فقد قال : « علينا بواسطة كلمة الله أن نهدم ونخرب ما قد أقيم بواسطة العنف. اني لن ألجأ الى القوة في محاربة المتعلقين بالخرافات والقديمي الايمان... فينبغي الا نكره احدا على شيء. ان الحرية هي جوهر الايمان ». (١٤٨).

انتشر في كل مدينة وتبرج نبأ يفيد ان لوثر قد عاد، وانه مزعم ان يعظ. فتقاطر الناس من كل مكان وازدحمت الكنيسة بالعابدين بحيث لم يبق موضع لقدم. فلما اعتلى المنبر جعل يعلمهم ويوصيهم ويويخهم بحكمة ورقة بالغتين. واذ كان يتحدث عن تصرف من قد لجأوا الى اجراءات عنيفة في ابطال الذبيحة الالهية (القداس) قال:

«ان القداس شيء رديء والله يقاومه، وينبغي الغاؤه. وأحب أن يستعاض عنه في كل العالم بالعشاء الرباني كما هو مرسوم في الانجيل، ولكن ينبغي الا نرغم أحداً على تركه بل لنترك الأمر بين يدي الله. فكلمته هي التي يجب ان تعمل لا نحن. قد تسألونني قائلين: ولماذا ذلك؟ فاقول لكم ان السبب هو انني لا أمسك قلوب الناس في يدي كما يمسك الفخاري الطين. نعم ان لنا الحق في أن نتكلم ولكن لا حق لنا في أن نفعل. علينا أن نبشر أما الباقي فمن خصائص الله. ولو انني لجأت الى العنف فما الذي أجنه من وراء ذلك؟ التجهم والعبوسة والتمسك بالرسميات والفرائض البشرية وتقليد الحركات والرياء... ولكن لن يكون هناك خلوص القلب ولا ايمان ولا محبة. فاذا اعوزتنا هذه الاشياء الثلاثة فكل شيء يعوزنا ونكون ناقصين. وأنا لا أقدم فلسا واحدا للحصول على مثل هذه النتيجة... ان الله يعمل عن طريق كلمته وحدها أكثر مما نستطيع فعله انتم وأنا وكل العالم بقوتنا المتضاهرة. ان الله يمسك بالقلب، فمتى امتلك القلب فقد أمتلك كل شيء.

«اني سأكرز وابحث وأكتب، ولكنني لن أرغم انسانا، لان الايمان شيء اختياري. انظروا ماذا فعلت. لقد وقفت ضد البابا وضد صكوك الغفران وضد البابويين ولكن من دون عنف أو ثورة. لقد قدمت كلمة الله وكرزت وكتبت، هذا هو كل ما قد فعلته. ومع ذلك ففيما كنت نائما حدث ان الكلمة التي كرزت بها أطاحت بالبابوية، بحيث انه لم يوقع بها مثل ذلك الضرر أمير أو أمبراطور. ومع ذلك فانا لم أفعل شيئا، انما الكلمة الالهية هي التي عملت كل هذا. فلو انني حاولت اللجوء الى القوة فربما كانت كل المانيا قد غرقت في طوفان

هائل من الدم. وماذا كانت تكون النتيجة؟ الخراب والدمار للجسد والنفوس. ولهذا ظللت هادئا وتركت كلمة الله تجول وحدها في كل العالم « (١٤٩).

وظل لوثر يعظ يوما بعد يوم، لمدة اسبوع كامل، تلك الجموع العطشى الى سماع كلامه. فكسرت كلمة الله سحر ثورة التعصب. ان قوة الانجيل اعادت الشعب الضال الى طريق الحق.

ولم يكن لوثر يرغب في منازلة المتعصبين الذين نشأ عن تصرفهم شر عظيم. وقد علم انهم قوم حكمهم غير سليم وأهواؤهم غير مضبوطة، واذ كانوا يدعون انهم قد حصلوا على استنارة خاصة من السماء لم يكونوا يحتملون أقل مناقضة لاقوالهم أو حتى أرق توبيخ أو مشورة. واذ كانوا يدعون لانفسهم السيادة العليا كانوا ينتظرون من كل انسان ان يعترف بصدق دعواهم من دون سؤال. ولكن اذ طلبوا مقابلة لوثر فقد قبل ذلك وهكذا أفلح في فضح ادعاءاتهم الى حد كبير حتى لقد رحل اولئك المحتالون عن وتبرج في الحال.

المعلمون يحتقرون الكلمة

وقد أوقف التعصب عند حده الى حين، ولكن بعد ذلك بعدة سنين ثار باكثر عنف وكانت له نتائج أشد هولاء. وقد قال لوثر عن المتزعمين لهذه الحركة : « انهم يعتبرون الكتب المقدسة مجرد رسالة ميتة. وقد جعلوا كلهم يصرخون قائلين » " الروح ! الروح ! " ولكنني بكل تأكيد لن أسير في ذلك الطريق الذي يفودهم فيه روحهم. ليحفظني الله برحمته من كنيسة لا يوجد فيها غير القديسين. اني اشتهي ان اعيش مع الفقراء والضعفاء والمرضى الذين يعرفون خطاياهم ويشعرون بها والذين يتنهدون ويصرخون الى الله دائما من أعماق قلوبهم للحصول على العزاء والعون « (١٥٠).

كان توماس مونزر انشط اولئك الرجال المتعصبين. كان رجلا ذا مقدرة عظيمة لو أحسن توجيهها لاعانته على أن يصنع خيرا، ولكنه لم يكن قد تعلم أول مبادئ

الديانة الحقيقية. « كانت قد تحكمت فيه رغبة في اصلاح العالم، ولكنه نسي، كما يفعل كل المتحمسين، انه ينبغي أن يبدأ باصلاح نفسه » (١٥١). كان يطمع في الحصول على مركز ونفوذ، وكان يرفض أن يكون في المركز الثاني حتى بعد لوثر. وقد اعلن ان المصلحين اذ وضعوا سلطان الكتاب المقدس في مكان سلطان البابا انما كانوا يوطدون دعائم شكل آخر من اشكال البابوية. كما ادعى قائلا انه هو نفسه مرسل من قبل الله لتقديم الاصلاح الحقيقي. وقال مونزر : « ومن عنده هذه الروح فعنده الايمان الحقيقي حتى لو لم ير الكتاب المقدس في حياته » (١٥٢).

جعل أولئك المعلمون المتعصبون الانفعالات تتحكم فيهم اذ اعتبروا كل فكر وكل وازع صوتا من الله. ولهذا تجاوزوا الحدود. بل ان بعضا منهم احرقوا كتبهم المقدسة صائحين وقائلين : « ان الحرف يقتل وأما الروح فيحيي ». وقد دغدغ تعليم مونزر رغبة الناس في الاشياء العجيبة، في حين انه أشبع كبرياءهم وغرورهم اذ انه في الواقع قدم الآراء البشرية على كلمة الله. واعتنق تعاليمه آلاف من الناس. وسرعان ما شهَّر بكل الانظمة المتبعة في العبادة الجهارية، كما أعلن ان تقديم الطاعة للامراء هو كمحاولة عبادة الله وبليعال.

ان عقول الناس اذ كانت قد بدأت تطرح بعيدا منها نير البابوية اخذت تتبرم من روادع السلطة المدنية. وتعاليم مونزر الثورية التي كانوا يدعون انها مصادق عليها من الله ساقط الناس الى طرح كل رادع أو ضابط، واطلاق العنان لتعصبهم وعواطفهم الثائرة. وقد تبعت ذلك اهرب الفتن والمنازعات فارتوت ارض المانيا بالدماء.

لوثر تعذبه الاحداث

ان العذاب النفسي الذي كان لوثر قد جاز به في ارفرت صار الآن يضغط قلبه بشدة مضاعفة اذ ألصقت تهمة التعصب بالاصلاح . ولقد اعلن الامراء البابويون ، وكان كثيرون مستعدين للتصديق على ذلك الاعلان ، ان الثورة هي الثمرة الشرعية لتعاليم لوثر . ومع ان هذه التهمة لم يكن لها أي أساس من الصحة فقد جلبت ضيقاً وغماً عظيمين لنفس المصلح . فكون دعوة الحق تهان الى حد مساواتها بالتعصب المنحط الدنيء ، كان ذلك أكثر مما يستطيع احتماله . ومن الناحية الاخرى فان متزعمي الثورة كانوا يبغضون لوثر لانه فضلا عن كونه قد قاوم تعاليمهم وانكر ادعاءهم الالهام الالهي فقد اعلن انهم متمردون على السلطة المدنية ، فأرادوا ان يثاروا منه بان اشتكوا عليه بانه مدع حقير، فبدا كأنه قد جلب الى نفسه عداوة الامراء والشعب.

فرح البابويون لذلك فرحا عظيما اذ كانوا ينتظرون ان ينهار الاصلاح سريعا، وكانوا يلومون لوثر حتى على الاخطاء التي كان يحاول جادا اصلاحها . اما الحزب المتعصب فاذ ادعوا كذبا انهم عوملوا معاملة ظالمة نجحوا في الظفر بعطف فريق كبير من الشعب، وكما هو الحال في غالب الاحيان مع من ينحازون الى جانب الضلال والخطأ فقد اعتبرهم الناس شهداء . وهكذا حدث ان أولئك الذين كانوا يبذلون كل قواهم ونشاطهم في محاربة الاصلاح نالوا العطف والمدح كمن هم ضحايا القسوة والظلم . هذا هو عمل الشيطان الذي تدفع الناس اليه روحُ العصيان نفسها التي ظهرت أول ما ظهرت في السماء.

عمل الشيطان

يحاول الشيطان على الدوام ان يخدع الناس ويغرر بهم بحيث يدعون الخطيئة براً والبر خطيئة. وما أعظم نجاحه ! وكم من مرة يقع اللوم والعار على خدام الله الامناء لانهم يصمدون بلا خوف دفاعا عن الحق ! ان أعوان الشيطان يُمدحون ويُداهنون، والناس ينظرون اليهم كشهداء، بينما اولئك الذين يجب امتداحهم ومساندتهم لاجل ولاءهم لله يتركون ليقفوا وحدهم تحت الشبهة والشك.

لا تزال الطهارة الزائفة أو القداسة الكاذبة تقوم بعملها، عمل الخداع، فكما كانت في أيام لوثر كذلك في أيامنا هذه تعرض نفسها باسماء مختلفة، محولة افكار الناس عن الكتاب ليسيروا وراء مشاعرهم وانفعالاتهم بدلا من تقديم طاعتهم لشريعة الله. هذه مكيدة من أنجح مكائد الشيطان لالصاق العار بالطهارة والحق.

دافع لوثر دفاعا مجيدا بلا خوف عن الحق ضد كل الهجمات التي كانت تأتيه من كل جانب. ولقد برهنت كلمة الله على أنها سلاح قوي في كل الحروب. فبتلك الكلمة حارب ضد سلطة البابا المغتصبة والفلسفة العقلية، كما وقف ثابتاً أمام التعصب الذي كان يحاول التحالف مع الاصلاح.

كان كل من هذه العناصر المضادة بطريقته الخاصة يلقي جانبا الكلمة المقدسة ويعظم الحكمة البشرية على انها نبع المعرفة والحق الديني. فالمذهب العقلي يؤلّه العقل ويجعله مقياس الدين. والبابوية اذ تدّعي للحبر الاعظم إلهاما آتيا من الرسل بسلسلة متصلة وغير متغيرة مدى العصور تفسح المجال لكل أنواع الاسراف والفساد تحت ستار قداسة التفويض الرسولي. والالهام الذي ادعاه مونزر ورفاقه لانفسهم لم يكن من منبع اسمى من الاوهام

العقلية، وكان تأثيره مدمرا لكل سلطة بشرية أو هئية. لكنّ المسيحية الحقّة تقبل كلمة الله ككنز الحق الموحى به ومحك كل أنواع الالهام.

بعدها عاد لوثر من وارنبرج أكمل ترجمة العهد الجديد. وبعد قليل قدم الانجيل الى شعب المانيا بلغتهم. وقد استقبل كل من كانوا يحبون الحق هذه الترجمة بفرح عظيم، أما من اختاروا التقاليد البشرية ووصايا الناس فقد رفضوها بكل ازدراء.

ولقد فزع الكهنة عندما فكروا في أن عامة الشعب سيكونون الآن قادرين على التباحث معهم في تعاليم كلمة الله وحينئذ سيكتشف جهلهم ويفضح. إن اسلحة محتجهم الجسدانية كانت عاجزة امام سيف الروح. وقد حشدت روما كل سلطتها لتمنع تداول الكتاب المقدس وانتشاره. لكنّ المراسيم والحروم وشتى العذابات كانت كلها بلا جدوى. ويقدر ما دانت روما الكتاب ونهت الناس عن قراءته زادت لهفة الشعب لمعرفة تعاليمه الحقّة. وكل من كانوا يعرفون القراءة كانوا مشتاقين الى درس كلمة الله بنفسهم. كانوا يحملونها معهم ويقرأونها مرارا، ولم يكتفوا إلا بعدما حفظوا أجزاء كبيرة من الكتاب عن ظهر قلب. فاذ رأى لوثر الخطوة التي نالها كتاب العهد الجديد بدأ في الحال في ترجمة العهد القديم ونشره في اجزاء كلما انتهى ترجمة واحد منها.

كان الناس يرحبون بمؤلفات لوثر في المدن والقرى على السواء، « وان ما قد ألفه لوثر وأصدقاؤه نشره قوم آخرون. وبعض الرهبان اذ اقتنعوا بعدم قانونية الالتزامات النسكية ورغبوا في الاستعاضة عن حياة الخمول والكسل الطويلة بحياة العمل الناشط، ولكنهم كانوا يجهلون كيفية اذاعة كلمة الله جهلا تاما، جعلوا يتجولون في الاقاليم يزورون القرى والاكواخ لبييعوا كتب لوثر وأصدقاؤه، وسرعان ما غصت مدن المانيا وقراها بهؤلاء الموزعين الشجعان » (١٥٣).

تأثير قراءة الكتاب

درس الناس هذه الكتب باهتمام عظيم وكان يستوي في ذلك الاغنياء منهم والفقراء، العلماء والبسطاء. وفي الليل كان معلمو مدارس القرى يتلون هذه الكتب على مسامع جماعات صغيرة من الناس وهم جالسون حول المواقد. ومع كل جهد كانت بعض النفوس تقتنع بالحق، واذ تقبل الكلمة بفرح تقوم بدورها بنشر تلك البشرى عند الآخرين.

وقد تحقق كلام الوحي القائل: « فتح كلامك ينير يعقل الجهال » (مزمو ر ١١٩ : ١٣٠). وقد احدثت دراسة كلمة الله تغييرا عظيما في عقول الشعب وقلوبهم. كان الحكم البابوي قد وضع نيرا من حديد على أعناق رعاياه فابقاهم في حالة الجهل والانحطاط. فكان الناس يمارسون الطقوس بتدقيق خرافي، لكن القلب والعقل لم يكونا يشتركان في تلك الممارسات الا بقدر ضئيل. فاذا قدمت كرازة لوثر الى الشعب حقائق كلمة الله الواضحة ثم وضعت تلك الكلمة اياها في متناول الشعب فذلك ايقظ قواهم الهاجعة. ولم يكتف بان طهر طبيعتهم الروحية ورفع من قدرها ولكنه أيضا منح عقولهم قوة ونشاطا جديدين.

كان يرى أشخاص من كل الطبقات ممسكين بايديهم الكتاب المقدس وهم يدافعون عن تعاليم الاصلاح وعقائده. أما البابويون الذين كانوا قد وكلوا الى الكهنة والرهبان أمر دراسة كلمة الله فقد طلبوا منهم الآن ان ينبروا لتفنيد التعاليم الجديدة. ولكن اذ كان الكهنة والرهبان يجهلون الكتب وقوة الله انهزموا هزيمة منكرة أمام اولئك الذين اتهموهم بالجهل والهرطقة. قال كاتب كاثوليكي : « ان لوثر لسوء الحظ قد أوصى تابعيه بألا يؤمنوا باي كلام آخر غير الكتاب المقدس » (١٥٤). وقد كان كثيرون من الشعب يتجمعون ليسمعوا الحق الذي كان يدافع عنه أناس قليلو المعرفة وبسطاء، بل كان هؤلاء يتباحثون فيه مع بعض اساتذة اللاهوت العلماء الفصحاء، وكان جهل اولئك العظماء المعيب يبدو واضحا عندما

كانت حججهم تصطدم بتعاليم كلمة الله البسيطة. وكان العمال والجنود والنساء وحتى الصغار أكثر دراية والماما بتعاليم الكتاب المقدس من الكهنة والملافنة.

كان الفرق بين تلاميذ الانجيل ومروجي الخرافات البابوية واضحا في اوساط المثقفين كما كان بين عامة الشعب : « وقد تصدى للمدافعين عن التراتبية البابوية، الذين أهملوا دراسة اللغات ونشر الثقافة الأدبية، بعضُ الشبان من ذوي العقول الرحبة والاذهان الكريمة المكرسين للدرس والاستقراء والبحث في الكتب المقدسة، وجعلوا الطرائف الادبية القديمة مألوفة لديهم؛ فاذ كانوا قد وهبوا عقولا نشيطة ونفوسا عالية وقلوبا شجاعة فقد بلغوا من العلم شأواً كبيراً بحيث لم يمكن لاحد ان يباريهم في ذلك امداً طويلاً. ولذلك فعندما كان أولئك الشبان المدافعون عن الاصلاح يقارعون الاساتذة البابويين في اي اجتماع كانوا يهاجمونهم بسهولة وثقة عظيمة بحيث كان خصومهم الجهلة يتلعثمون ويرتبكون ويجللهم الاحتقار الذي كان يرى على وجوه جميع الحاضرين » (١٥٥).

وعندما رأى رجال الكهنوت البابويون قلة جموع المصلين استعانوا بالحكم، وبكل الوسائل حاولوا ارجاع الرعية الى الحظيرة، لكن هؤلاء كانوا قد وجدوا في التعاليم الجديدة ما أشبع نفوسهم، فتركوا اولئك الذين ظلوا امداً طويلاً يطعمونهم من خرنوب الطقوس الخرافية التافهة والتقاليد البشرية.

وعندما اشتعلت نيران الاضطهاد ضد معلمي الحق تنهبوا الى كلام المسيح القائل : « ومتى طردوكم (اضطهدوكم) في هذه المدينة فاهربوا الى الاخرى » (متى ١٠ : ٢٣) . لقد انبثق النور مشرقاً في كل مكان. واحيانا كان اولئك الهاربون يجدون بابا مفتوحاً يرحب بهم، وحيث يمكنهم كانوا يبشرون بالمسيح، احياناً في الكنيسة، فان لم يسمح لهم بذلك وحُرموا من هذا الامتياز كانوا يكرزون في بيوت خاصة أو في العراء. فأنى يكونوا يجدوا اناساً يستمعون فيصبح ذلك المكان هيكلًا مقدسًا. والحق الذي كان يُعلن بمثل ذلك النشاط واليقين كان ينتشر بقوة لا تقاوم.

وعبثا لجأ الكهنة الى السلطات الدينية والمدنية لسحق الهرطقة
وعبثا كانوا يلجأون الى السجن والتعذيب والنار والسيف. لقد ختم آلاف
من المؤمنين شهادتهم بدمهم ومع ذلك فقد ظل عمل الاصلاح يسير قدما. لقد
آل الاضطهاد الى نشر الحق، أما التعصب الذي حاول الشيطان ان يقرنه به فقد
نتج منه ايضاح الفرق الشاسع بين عمل الشيطان وعمل الله.